العدد (1873) السنة الثامنة - الاثنين (9) آب 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

يوميات (المدى) في باريس

الموسيقى.. الرسم.. الرقص

من مظاهر التسول على الطريقة الباريسية

باريس / يوسف المحمداوي

أنا من المؤمنين والمناصرين جداً للذين لا يتصدقون على متسولي الشارع، ولكن الخميس الماضي أجبرتني زوجتي على مخالفة ذلك الإيمان وتلك النصرة وقمت بإخراج مبلغ (١٠٠٠) دينار وأعطيته لامرأة اتخذت من تقاطع ملعب الشعب مقراً لشحاذتها، وفور تسلمها المبلغ قالت: (الله لا يراويك مكروه الله يطول عمرك) قلت لها: أدعي لنا أن نتخلص من هذه السيطرات ومن الازدحام ويعود بلدنا آمناً مستقراً.

فالتفتت اليّ وقالت بعصبية: (خالة لو ما الازدحام والسيطرات شناكل.. ليش حجي تريد تموتنه من الجوع)، تحرك السير وتحركت معه صعقات جوابها على قلبي.. أحقاً تعني ما قالت؟ هل هناك بالفعل من يريد ديمومة ما حدث ويحدث؟ نعم هناك من السياسيين يراهنون على تلك النظرية في مسألة البقاء بهذا المنصب أو ذاك، لكن هذه المتسولة... لماذا؟ أسئلة كثيرة وكبيرة جعلتني أترك يوميات المدى في باريس التي تتحدث عن معالمها.

التسول على الطريقة الباريسية

وأغوص مع ظاهرة التسول فيها على الطريقة الباريسية وأقارنها بمصيبتي التي أصبحت مهنة يومية بعد إن كانت موسمية قد تشاهدها في المناسبات الدينية أيام زمان.

حين تسير في شارع الشانزيليزيه، أو تمر في الميدان المواجه لبرج ايفل، قوس النصر، كاتدرائية نوتردام،ساحة الكونكورد، أنفاق المترو تمتلئ عيناك بمن افترشوا الأرصفة والساحات ليمارسوا ظاهرة التسول، موسيقى، ألوان، لافتات كتبت عليها بالانكليزية وأخرى بالفرنسية جمل طريفة بعضها صادق والبعض مزيف الغرض منه التندر.

دخلنا أنا وأخي أحد أنفاق المترو متجهين صوب هدفي وليس هدفه بالطبع، ونحن داخل المقطورة أطل رجل تجاوز عمره الخمسين حسب تقديري وهو يعزف على آلة الأكورديون بمقطوعة تحيلك إلى الحان أوروبا الشرقية وإيقاعاتها، قبل وصولنا الى محطة وقوف للمترو طلبت من أخي كاظم أن يغادر الكرسي ويلتقط لي صورة مع هذا المتسول الجميل ويسأله عن أسمه وبلده، ولماذا يمتهن هذا العمل؟

رجل بزي إمرأة

اسمه بروز كيل من بلغراد

قال لي متسائلاً.. أنت ماذا تعمل؟

قلت: صحفي

قال: هل مقتنع بعملك؟

قلت: طبعاً

قال وكذلك أنا لأنه العمل العقلاني الوحيد الذي أجيده، وما أن توقف المترو أخذ بروز آلته الموسيقية وكذلك تناول اليورو من يدي بكل لطف مع كلمة (ميرسي) وتوجه نحو مقطورة أخرى من المترو، ملابس أنيقة ووجه تملأه الابتسامة وإصرار بقناعة تامة على ان ما يؤديه عمل، تذكرت حينها سيد قاسم رحمه الله، وهو يقف على أبواب محال تأجير سرادق المآتم، ليعرف من خلاله عنوان أصحاب المتوفى حتى يمارس طقوس الاستجداء فيه، كان هذا الأمر في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وقد ألف أهالي الوفيات في المنطقة سيد قاسم واعتبروه جزءاً من المآتم شأنه شأن الطباخ، وعاملي القهوة والشاي، تذكرته متحسراً على تلك الأيام، بعد أن رأينا العجب في أيامنا هذه من إبداعات وتجليات ظاهرة التسول في البلد.. حيث لا تخطر ببال احد لإدامة ممارسة مهنتهم،أطفال للإيجار يستخدمون (للكدية) مشلول يثير عاطفتك حين يمارس عمله التسولي تراه يسابق الريح بعد نهاية رحلة توفير النقود، رجل بزي امرأة اتخذ من البرقع وادعاء البكم وسيلة لتنطلي حيلته علينا.

ربان السفينة والسيد

بعد أن غادرنا بروز كيل وآلته، صعد المترو شاب بثياب رثة وهو يحمل بيده اليسرى لافته وباليمنى قبعة، كتب على اللافتة.. أنا ربان سفينة اختطفها القراصنة مني في الصومال وأريد احتساء الخمرة لكي أنسى.. ابتسم الجميع وكنت أول المبادرين لتقبيل قبعته باليورو، يرفد القلب بالسرور وان كان عن طريق كذبة بيضاء، لكنه صادق تماماً بنواياه.

حين صرخ أمام الملأ انه يريد ان يحتسي الخمرة، لحظتها وعلى الرغم من سروري بالمشهد تذكرت أول أيام مأتم والدتي.. حيث دخل علينا رجل يرتدي العقال والكوفية الخضراء التي تشير الى ان من يرتديها يعود نسبه الى سلالة آل البيت، ليبدأ سمفونية الحزن المعهودة ويختمها بسورة الفاتحة على روح المرحومة، حتى يصل الهدف في خطبة الاستجداء.. لي عائلة كبيرة تركتها من غير طعام، هل تقبل ضمائركم أن العلاوي - وطبعاً لا يقصد علاوي الحلة- وإنما (العلويات) يتوسدن الأرض فراشاً وينمن بلا طعام، وبعد نهاية خطبة (الكدية) قام أخي الكبير بإعطائه مبلغ من المال وكذلك أغلب الحاضرين في المأتم، أما أنا وقبل أن يخرج حاملاً جهازه الصوتي الذي هو برهان قاطع على زيف ما يدعي ليديم تسوله في المآتم.

سيد أم سيئ

قلت له مولاي سيد أم سيئ انتظر قليلاً حتى ينضج الطعام لتأخذه معك لبنات رسول الله، وكذلك سنهبك بعض الفرش والملابس ومبلغ من المال سأقدمه بنفسي لبنات نبينا محمد (ص)، أصفر وجه الرجل وهو يسألني هل أنت أبن المرحومة؟ قلت له: نعم، قال: يا ولدي لا أريد أن أشغلك وأنت في هذا المصاب الجلل، أعطني المال وسأوصله لبنات رسول الله وأنت تعلم يا بني أن (العلاوي) لا يراهن أحد.. وجزاك الله خير الجزاء، قلت له: أبداً.. لابد أن تدلني على البيت وسأجلب معي شقيقتي لتقديم المال لهن، وستقوم بنفسها بتفقدهن شهرياً وتخصيص مبلغ من المال لهن ليكون ثواباً على الأقل للمرحومة والدتي، أذعن الرجل وجلس على كرسي القلق مرغماً، وبعد دقائق من جلوسه انشغلت عن مراقبته باستقبال المعزين، التفت إلى مكانه فلم أجد الرجل وكأنه فص ملح وذاب سألت الرجل الذي كان يجلس بجانبه أين السيد؟ رد عليّ مبتسما: لقد خرج من الخلف مسرعاً.

قلت مع نفسي كاذب ومحتال، لكن هل هو سيد بالفعل أم أنه سيئ... لا أعلم.

نسعد ونسعد

قبالة الحديقة المحاذية لكاتدرائية نوتروام- ناي سعيد وهو يقبل شفاه كريستال وايقاع غفا بين فخذي جاكلين، لوحة حسن موسيقية تفرض عليك أن تجلس لتستمع وتتمتع دون أن يفرض عليك أحد مبلغاً معيناً، تقول كريستال: نحن من رومانيا وجئنا إلى باريس لنمارس عملنا هذا وهو يدر علينا ما يكفي أن نعيش حياتنا بصورة طبيعية.

× ألا تعتبرون أن هذا العمل نوع من التسول؟

.ردت جاكلين بتجهم: نحن نجد في عملنا هذا أقصى الرضا، وهو عملنا الذي نحلم به بعيداً عن الكسل والجمود، نسعد.. ونسعد متسائلة كم تدفعون لسماع حفلات موسيقية داخل القاعات، ونحن الآن لم نطلب منك سماع الموسيقى مقابل ثمن محدد أو مفروض نحن لا نتسول.

- آسف جداً لم أكن أقصد، ورميت اليورو مع خجلي بالصندوق الزجاجي واستمرت كريستال وجاكلين بعزفهما، وأنا أعزف بأوتار الحزن على رواسب الذاكرة بمشاهدة البؤس المصطنع الذي يجيده المتسولون في بغداد وبقية المحافظات.

اللهم شافِ كل مريض

شابة يتوقد وجهها بملامح سومرية ساحرة تقف قبالة عمارة للأطباء في ساحة النصر، وهي تردد كلمات التوسل المعهودة (عطايا قليلة تدفع بلايا كثيرة.. اللهم شافي كل مريض بحق محمد وآل بيت محمد)، وأدعية لا أظنها تستطيع الصعود بمصلحة نقل الركاب التي تقف خلفها، فكيف تقتنع بصعودها الى السماء.. أعطيتها الف دينار وقلت لها: هل تستطيعين ترك هذه المهنة إذا ما توفرت لك فرصة عمل؟.. ردت عليّ باستهزاء (الظاهر أنت ليس من البلد.. عمو توظفني بأية دائرة وأنا خريجة المتوسطة).. أنظر الى هؤلاء الذين يفترشون الأرض مثلي كباعة للسكائر والصحف، محمود وعلاوي وغيرهما جميعهم من حملة الشهادات الجامعية ولم يجدوا فرصة للتعيين.. (روح عمو الله يخليك) فأنا أرملة ولست من النوع الذي قد تفكر به لا سمح الله أنا شريفة وما أجمعه منكم هو طعام لعائلتي المتكونة من خمسة أبناء ذهب والدهم ضحية للإرهاب (أرجوك عمو توكل وهذا الألف دينار مالك ما أريده).

- والله يا ابنتي ما قصدته غير تقديم الخدمة لا أكثر.

- (كتلك حجي روح الله وياك والله يخليك لا تقطع رزقي).

وبالفعل رضخت لطلبها بعد أن تركت الألف دينار أمامها وأنا أصيح بكل جوارحي ويحك يا عراق،، عشقناك حتى الثمالة.. لماذا تعاملنا بهذا الجحود.

قومي وتسولي معي

التسول أو (الكدية) تشير الدراسات الى أنها ظهرت في العهد العباسي وازدهرت أيام بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات المشهورة في القرن الرابع الهجري، وفي كتاب (بديع الزمان الهمذاني) يشير مؤلفه الدكتور مصطفى الشكعة ان (الكدية) كانت الدافع الأول للهمذاني لتأليف كتابه الذي ذكر فيه أشهر شعراء تلك الظاهرة من أمثال الأحنف العكبري وأبو دلف الخزرجي وأبو فرعون الساسي وأحمد الهيتي وابن الحجاج وغيرهم.

ومن نوادر المتسولين أن أحدهم وقف على باب امرأة وطلب منها درهماً، فقالت له: لا أملك، ثم قال: فلساً، فأجابته: لا أملك، ثم قال: قمحاً، فقالت: لا أملك، قال: زيتاً، ردت عليه: لا أملك، ولم يترك حاجة من حاجيات البيت الا وطلبها وهي ترد عليه بكلمة (لا أملك) فرد عليها بكلمة يا (كلمة غير مهذبة) ما الذي يجلسك هنا؟ قومي وتسولي معي.

قد يكون لموقع فرنسا الجغرافي المتميز هو من فتح الباب للجنسيات المختلفة بمزاولة اعمالها على أراضيها بتلك الصورة.. فرنسا التي تمتد من البحر الأبيض المتوسط الى القناة الإنكليزية وبحر الشمال، ومن نهر الراين حتى المحيط الأطلسي، وبسبب شكلها يطلق عليها الفرنسيون بالسداسي لكونها مجاورة لبريطانيا، بلجيكا، لوكسمبورغ، ألمانيا، سويسرا، إيطاليا، موناكو، اندورا، إسبانيا، فضلاً عن اشتراكها بأراض خارج حدودها مع البرازيل، وكذلك سورينام وجزر الانتيل الهولندية.

(٣٧) جنسية مختلفة في فضائية

هذا الأمر قد جعلها حاضنة لجميع الجنسيات وبالذات في المواسم السياحية، بل ان هناك جنسيات مختلفة اتخذت من فرنسا مكاناً دائمياً للعيش فيها، خاصة الجنسيات القادمة من الشمال الأفريقي وجنسيات أخرى، فتصور عند زيارتنا الى فضائية (TV24) - الذي سنأتي على ذكره بحلقة خاصة عن الإعلام الفرنسي - وجدنا ان عدد العاملين فيه من الجنسيات غير الفرنسية بلغ (٣٧) جنسية من مختلف بلدان العالم، وهذا الأمر ينطبق على الفنادق والمطاعم وسيارات الأجرة وغيرها من الاعمال، وكذلك بالنسبة لظاهرة التسول على تلك الطرق الراقية.

شاب يرتدي الزي الفرعوني وهو يجلس على مصطبة وأمامه صندوق الرزق، وآخر طلى وجهه بألوان تشير للعلم البرازيلي وهو يقوم بألعاب بهلوانية تستحق الوقوف لروعة الأداء وتستحق الدفع لما يبذله من عناء، لكن ما لفت انتباهي أن أحد المتسولين افترش الأرض ملتحفاً ببطانية ويضع أمامه قبعته التي رأيت فيها عملات نقدية صغيرة لكنه لم يكن يرسم او يعزف أو يرقص ولا ينظر الى أحد لكونه مشغولاً بقراءة كتاب.

مدينة خاصة للمتسولين

اسم المتسول الكسندر ميكائيل من بلغاريا الذي قال: كنت في ستوكهولم عاصمة السويد وانا من ضمن (٥٠) متسولاً طردتنا الحكومة السويدية من أراضيها لأن أولئك الكلاب -حسب قوله- يعدون التسول بهذه الطريقة نوعاً من النصب والاحتيال، ولديهم قانون يجيز طرد أي شخص لا يعيل نفسه بطريقة شريفة حتى وأن تعلق الأمر بمواطنين من الاتحاد الأوروبي، كما ورد في قانونهم اللعين- حسب قوله- مضيفاً: أنه قرر السفر الى الهند في الأسبوع المقبل.

قلت له: لماذا الهند؟

- في الهند مدينة خاصة للمتسولين تحكمها قوانين وتشريعات خاصة، حيث يقوم بزيارتها الأثرياء ويغدقون بالأموال على المتسولين من أمثالي، وهذا ما يضمن لهم حياة رغيدة هناك، تصوروا ان لديهم هويات خاصة لكل متسول بعد (٦) أشهر من المعايشة لإثبات حسن السلوك.

فاجأني الكسندر بسؤاله.. من أي بلاد أنتم؟.. قلنا له: من العراق.

- آه بابليون.. ماذا حل بها؟

- عامرة بآثارها المسروقة، والحمد لله.

- أليس لديكم متسولون في العراق؟

- هل تعقل هذا يا سيدي.. ونحن نطفو على بحيرة من الذهب!!

رميت اليورو بقبعته واقتربت من شاب مبتور اليد يتخذ من تقاطع المسبح مقراً لتسوله، وقبل ان أعطيه الألف دينار قلت له بابتسامة ملفقة: بشرفك ما مقدار دخلك اليومي من هذا العمل؟ وبلا حسد ما هو إلا مجرد فضول.

هذا حقي من النفط

رد عليّ بابتسامة ولا أدري هل كانت ملفقة أم صادقة: جوابي مكلف وأنت صحفي كما أعتقد وأخوك أيضاً خريج إعلام أعطني المقسوم أولاً وسأعطيك الجواب.

أعطيته الألف دينار لكنه رفضها قائلاً: (بألف دينار تريد مني معلومات بغاية السرية)، فأخرجت له مجبراً خمسة آلاف دينار، أخذها وهو يقول: تقريباً (١٥٠) ألف دينار، وأنا استحقها معوق بسبب العمليات الإرهابية وأعيل عائلة كبيرة وها أنت تراني الآن تحت قوة لهيب الشمس وعواصفنا الترابية اناضل من أجل لقمة العيش ولا أخفيك سراً بأني استطعت شراء بيت في شارع فلسطين وسأشتري قريباً سيارة.. (بشرفك لو باقي على الدولة أين ستجدني مع عائلتي الآن، أما بخيمة تحت السريع أو بيوت الصفيح).

× ألم يحاسبك أحد من الدولة؟

- (يا أخي مو انت صحفي.. يا دولة حبيبي) يأتون لأخذ المقسوم، بل أصبحوا أصدقائي، ثم أن هناك أمراً يجب ان تعرفه أنا على الأقل أمام الجميع أخذ حقي من النفط وليس كما يفعل بعض المسؤولين بالسر، والذي لا نعرف مقدار رواتبهم.. رجاءاً حبيبي انتهى الجواب واتركني أمارس عملي.

لم أكن أطيق الانتظار لاكتشف لماذا نحن؟ فرفعت رأسي باتجاه السماء.. لماذا نحن؟

نمارس دراستنا عملياً

مجموعة جوبير فرقة هولندية موسيقية مؤلفة من خمسة فنانين توزعوا ما بين الكمان والجلو، ولم أكن مسحوراً بموسيقاهم الكلاسيكية فقط وإنما بروعة التنظيم حتى في طريقة جلوسهم المنتظمة في ساحة متخمة بالورد وسط باريس، ورود تحتضنها ورود، الصندوق الذي أمامهم ليس بالزجاجي وإنما خشبي.. شبان وشابات جاءوا بأحلامهم على مائدة سحر الموسيقى.

يقول جورج وهو قائد الفرقة: اليوم وغداً في باريس بعدها نسافر الى بروكسل لنقضي فيها بضعة أيام نقدم خلالها معزوفاتنا الموسيقية الخاصة بنا، مضيفاً، بأنهم طلبة في معهد الموسيقى بأمستردام، وهذا ما دفعنا لاستغلال العطلة الدراسية لممارسة دراستنا عملياً من خلال هذه الرحلات التي نغطي نفقاتها من صندوقنا الخشبي هذا.

وأنا انظر الى آلاتهم تذكرت آلات تسولنا: تقارير طبية ملفقة، أشعة طبية، هويات مزورة تقول انه أصم أبكم، عاهات بعمليات قيصرية، عاهات وهمية، ابتكار حيل، طفل نائم بحضن امراة بعد أن أرضعته بالأقراص المنومة تحت لهيب الشمس تثير عواطف المارة، فتيات بعمر الزهور بملابس رثة ووجوه شاحبة، ولو أكتفوا بالتسول لكان الأمر أهون.

استدراج الشباب لممارسة الجنس

صديقي أحمد وهو صاحب محل لتصليح الأجهزة الالكترونية في السعدون قال لي: ان أغلب هؤلاء المتسولين هم من الغجر الذين هجروا لأسباب دينية وبعضهم من المحافظات، وغالباً ما يكون انطلاقهم للتسول وتوزيعهم على المناطق بالقرب من محلي، لذا تربطني علاقة معهم، فهم يعملون على شكل شبكات منظمة ولكل شارع أو ساحة هناك متعهد يحمي تلك الشبكات، وبعض الفتيات يقمن باستدراج الشباب لممارسة الجنس مقابل مبلغ معين، مبيناً، أن رب العمل أو الأسرة هو من يقوم بالتوزيع، النساء الكبار مع الأطفال الرضع الى جهة معينة، الشباب الى جهة أخرى وبالنسبة للفتيات، اما يزجوهن بالشوارع أو يقومون بتوزيعهن على أصحاب المحال التجارية على طريقة زواج المتعة مقابل مبالغ قد تصل الى ملايين الدنانير، ولكن بعقد غير شرعي خشية على سمعة التجار بالطبع.

ويؤكد أبو شهاب أن أصحاب تلك الأسر والشبكات أصبحوا أثرياء جداً فأنا وقبل ان أغلق المحل مساءاً أراهم بملابس أنيقة وسيارات فاخرة يتجولون في السعدون وينطلقون منه الى الكرادة أو الى أبي نواس لينعموا بما أثمر عليهم متسولهم من نقود.

وأنا أغادر المأساة التي رواها لي صديقي ارتسمت في عيني خارطة العراق، وتذكرت مقطع لشاعرنا حسين القاصد من ديوانه (حديقة الأجوبة):

أني ساشطب جملة النحو الشهيرة..
قام زيد
وأقول نام ولم يقم
وأظنه في غير هذا
لا يفيد

هراء ولكنه مثمر

فرقة حمود بو صالح المغربية وهي تقدم عرضاً مسرحياً امتزج فيه الرقص الشرقي مع حركات بهلوانية وقراءات شعرية بالفرنسية تذكرت حينها مقولة الراحل الخالد محمود درويش (الشعر ليس مرآة شخصية، بل هو مرآة وجودية للكون).

رسام افترش الأرض ليرسم لك صورة بقلم الرصاص لتحتفظ بها كذكرى مقابل ما تجود به يدك لصندوق نتاجه وإبداعه.. لا تسول هناك من غير ثمار خدمة ممتعة، قد يقول البعض أنه تسول وما تقوله يا يوسف مجرد هراء، وأنا أقول سموه بالهراء ولكني أراه هراء مثمراً، إذا ما قورن بمصيبتنا.. عصابات متخصصة وصل بها الجرم والاستهتار الى خطف الأطفال وتأهيلهم للمستقبل كمتسولين محترفين، قد يعزو البعض استفحال تلك الظاهرة الى إفرازات الحروب والبطالة والفقر.. نعم بلا شك ساهمت تلك الأسباب باستفحالها ولكن السؤال المهم، كم من معوق افترش الأرض لبيع الصحف والسكائر، بل البعض منهم أصبحوا أبطالاً للعالم برياضة المعاقين، أنها مسألة عزة نفس وكرامة وسلوك لثوابت الشخصية العراقية التي ترفض الذل.

لنا الله يا وطن

قال أحد الشعراء قديماً وهو يرد على تعليق ابنته لتشقق يديه في العمل وخشونتها:

بنيتي لا تستنكري كد يدي
ليس من كد بعز لذليل
إنما الذلة أن يمشي الفتى
ساحب الذيل الى وجه البخيل

نعم لدينا جياع، فالواقفون على دوائر شبكة الرعاية الاجتماعية لتسلم رواتبهم المضحكة هم جياع.. الساكنون في بيوت الصفيح جياع، ولكنهم لم يفعلوا كما فعل هؤلاء، بل البعض منهم أثر الموت ولم يمد يده، وجميعنا نتذكر شعراء رحلوا بسبب فتك الفقر بهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الشاعر عبد الأمير الحصيري الذي يغازل فقره وتشرده في قصيدته (أنا الشريد):

أنا الشريد!! لماذا الناس تذعر من
وجهي؟ وتهرب من أقدامي الطرق؟!
قد بت أمضغ اعراقي واوردتي
وارتوي من جراحاتي وانسحق
العري.. أذهله شأني، فجن علي
شفاهه الف سؤل كيف ينطلق
عريان يكسو الدنا بالنجم البسة
عطشان، في راحتيه الكوثر العبقُ

بعد كل هذا.. أليس من حقنا أن نقول أين الحكومة؟ سواء في إحسانها للجياع الذين فضلوا الموت على الذل أو في محاسبة عصابات مافيا التسول.. ولنا الله يا وطن.

سحر الموسيقى وعطر الورود

المدى مع اكورديون بروزكيل

ناي يقبل الشفاه وايقاع توسد فخذين